العنوان:	القيم ألإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن السادس هـ قيم الخير والإحسان نموذجا
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة القاضي عياض - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	بوتشيش، إبراهيم القادري
المجلد/العدد:	ع 12
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1993
الشهر:	نوفمبر
الصفحات:	31 - 40
رقم MD:	517610
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	المجتمع المغربي، قرن 6 هـ، الصوفية، القيم ألإنسانية، الخير، الإحسان، المجتمع الأندلسي
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/517610

القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن السادس هـ قيم الخير و الإحسان نموذجا

د . إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب - مكناس -

شكلت ظاهرة التصوف معلمة هامة في مسار تاريخ المغرب والأندلس ، وعلى الخصوص خلال القرن 6 هـ (12 م) حيث شب عودها وأصبحت تمثل خانة هامة في فضاء المجتمع . و رغم ما أثير حول الظاهرة الصوفية من مناقشات ودراسات ، فنادرة هي الأبحاث التي ركزت على دراسة القيم الإنسانية التي عكستها قيم الرحمة والإحسان في الممارسات الصوفية (1) لذلك تسعى هذه الورقة إلى إلقاء المزيد من الأضواء حول هذه السلوكات الإنسانية في ذات الحقبة ، انطلاقا من تفسيرات سوسيو - اقتصادية .

لقد خرجنا من حصاد دراسة سابقة (2) أن المجتمع المغربي - الأندلسي عرف خلال القرن 6 هـ تفاوتا في ملكية وسائل الإنتاج من أرض وماشية ورؤوس أموال ، مما سمح بظهور تفاوت اجتماعي استفاد منه الأعيان وأهل الثروة واليسار ، في حين أقفلت أبواب الرزق أمام قطاع عريض من العامة ، وسدت أمامهم كل القنوات والطرق الممكنة لتحسين وضعهم الإجتماعي، في

---

(1) أتذكر من بين هذه الدراسات : FAURE : Abu L'Abbass A . Sabti (524 -601) ;La justice et la charité ; Hesperis 1956 ;3o et 4o trimestre ; pp 488;

وكذلك : أحمد الفحصي، أبو العباس السبتي المثالي الذي حارب ظاهرة الفقر في المجتمع الإسلامي، المجلة الاسلامية، عدد 17، سنة 1986.

(2) انظر لكاتب هذه السطور : الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس خلال عصر المرابطين، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ نوقشت بكلية الأداب - مكناس - سنة 1991 (مرقونة) ج 2 ص 493 ، و ما بعدها .

وقت وقفت فيه الدولتان المرابطية والموحدية عاجزتين عن استيعابهم داخل المجتمع . لذلك بات بديهيا أن تتشكل شرائح عريضة من الفقراء الذين استفحلت أعدادهم كما تثبت ذلك النصوص (3) و هو ما طرح أمام مختلف القوى الإجتماعية مسألة شائكة تتطلب اتخاذ موقف معين لإعادة التوازن الإجتماعي، فما هو الموقف الذي تبنته قوى التصوف ؟

يمكن تلمس هذا الموقف عبر مستويين : مستوى يجنح نحو التعبير عن الرغبة في خلق توازن إجتماعي من خلال التستر وراء الكرامات الصوفية، ومستوى واقعي يعكس اقتراحا عمليا للحل أزمة الفقر، ويتجلى في محاولة غرس قيم الرحمة والإحسان داخل المجتمع.

فبالنسبة للمستوى الأول، يمكن للباحث أن يستجلي من خلال الحكايات الكرامية المتناثرة في كتب المناقب أن المجتمع الذي تشكل في مخيال المتصوفة كان مجتمعا يسوده نوع من العدالة الإجتماعية وتنعدم فيه "الوسائل" التي تؤدي إلى التفاوت الإجتماعي وتعتبر الكرامة الصوفية عن ذلك بإمكانية التعايش بين الإنسان والحيوانات المفترسة وكل الكائنات ما دامت أسباب الإستغلال والعدوان تنمحي في هذا المجتمع المنشود. لقد عبرت الرواية الكرامية عن ذلك حين ترجمت لابن حرزهم فذكرت أنه كان يصاحب الأسد ويفتل أذنيه دون أن يخشي أي ضرر يصدر منه (3 م). بل إن الحيوانات المتنافرة نفسها يمكن أن تتعايش وتذوب بينها الروح العدوانية داخل هذا المجتمع الذي تصوره المتصوفة (4) لكن ماهي العوامل التي كانت تحول دون تكوين هذا المجتمع المساواتي؟

إن تفحص بعض الحكايات الكرامية تثبت أنهم أرجعوا سبب ذلك إلى المال الذي هو وسيلة من الوسائل التي تمخض عنها التفاوت الإجتماعي لذلك اتخذوا موقفا مناوئا منه، فنعتوه أحيانا " بأوساخ الناس" (5) وأحيانا أخرى

---

3) انظر النصوص التي سترد في هذه الدراسة حول علاقة المتصوفة بالفقراء .

(3م)ابن الزيات ، التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ،ط . البيضاء 1984، منشورات كلية الآداب بالرباط ، ترجمة 15 ،ص .172 .

(4) يذكرابن الزيات في ترجمة المتصوف أبي يعزي أن وفدا من مريديه عزموا على زيارته ، فلما وصلوا تركوا دوابهم على بعد مسافة من منزل شيخهم و عندما خرجوا من عنده ، وجدوا سباعا رابطة إلى جانب دوابهم . فلا السباع افترست الدواب و لا الدواب نفرت من السباع . نفس المصدر ص 217 .

(5) نفسه، ص. 247، ترجمة 90.

"بالشياطين" (6) ورفضوا امتلاكه، فالمتصوف أبو بكر بن محمد أقام مدة " لم يعقد على دينار ولا درهم" ويصور ابن صعد (7) موقف المتصوفة من المال في رواية بالغة الدلالة وردت في ترجمة الوالي أبي مدين شعيب فيذكر أن بعض الحيوانات ألفت صحبته في خلوته، غير أنها أنكرته في أحد الأيام بسبب امتلاكه بعض الدراهم . ونعلم من خلال رواية أخرى أن الوالي ابن حرزهم رفض حقه من الميراث وتنزه عنه (8). وبصفة عامة ، فإن المتصوفة نبذوا المال والأشياء المادية ، واعتبروا كل ذلك أساس الصراعات الإجتماعية (9).

وكبديل لذلك ، صورت الكرامة الصوفية المال الخاص بعالم التصوف فسمتها " بالدراهم الطرية" (10) التي يجب أن تسخر في خدمة الفقراء ومواساة ذوي الحاجة في هذا السياق ذكر ابن الزيات (11) أن رجلا فقيرا قصدأحد الأولياء وشكا له عدم قدرته على شراء أضحية العيد" فمد هذا الأخير يده وقبض في الهواء ومده بدراهم طرية جديدة "، وهو ما يعكس رغبة الصوفي في خلق هذا " البديل المادي" لإعادة التوازن الإجتماعي عبر المتخيل الديني .

ولدينا نصوص إضافية من خلال بعض الكرامات ، تصب كلها في وجوب أخذ أموال الأغنياء والتصدق بها على الفقراء ، وعدم امتلاك الفائض أو ما يزيد عن الحاجة. (12).

---

(6) نفسه، ص. 111، ترجمة أبو محمد عبد السلام التونسي.

(7) النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 2419)، ص. 182-181.

(8) ابن الزيات ، م . س.، ص. 170، ترجمة 51.

(9) ورد في ترجمة المتصوف ابي عبد الله التاودي ما يلي : "حدثني ابو علي حسن بن محمد ابن الفتح الغافقي الصواف قال : سمعت الشيخ ابا مدين شعيب ابن الحسين الانصاري يقول : زار ابا عبد الله التاودي رجلان فابصرا بين يديه هرين صغيرين قد جعل كل واحد منهما رأسه على الآخر فقال هكذا ينبغي ان تكون أخوة بني آدم . فمضغ ابو عبد الله خبزا ورماه إليهما فوثب كل واحد منهما على الآخر فقال لهما : هكذا كانت أخوة بني آدم حتى دخلت بينهما الدنيا . فلما دخلت بينهم أفسدت أخوتهم". انظر نفس المصدر، ص. 272، ترجمة 120.

(10) الصومعي : المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 2467)، ورقة 102 ظهر

11) التشوف ص 131 ترجمة 23.

12) ذكر ابن الزيات أن رجلا ذهب إلى السوق ومعه درهم فسأله أحد المتسولين فهم بإعطائه قيراطا وإنفاق القيراط الآخر، لكنه رده إلى جيبه، فرآه أحد المتصوفة وعلم " بقلبه" أنه امتنع عن الصدقة، فأمره بدفع القيراط إلى المتسول. أنظر ص 288 ترجمة 130.

يتضح مما سبق أن المتصوفة كانوا يصوغون عبر المتخيل الكرامي الحل الذي كانوا يرومونه ، وهو محاربة القائم على سلطة المال ، ويدعون إلى مجتمع ينعدم فيه الفقر.

وإذا كان ذلك هو الموقف الذي تبنوه على مستوى الفكر الكرامي ، فما هو الموقف الذي اتخذوه على المستوى الواقعي العملي؟

لقد كان منطلقهم في إيجاد حل لمسألة الفقر ينبني على الجانب الإنساني القائم على مبدإ الرحمة والإحسان كأسلوب سعوا من خلاله إلى خلق نوع من التوازن الإجتماعي ، فمن خلال قراءة في تراجم متصوفة الحقبة موضوع الدراسة ، يبرز الجانب الإنساني في سلوكهم ومواقفهم وقد ترجموا ذلك في قيم الرحمة والإحسان والإيثار وهي قيم جعلوها مبدءا وغاية حتى صارت من المكونات الأساسية في شخصيتهم ولا غرو فقد جبلوا على مشاركة الفقراء إحساسهم بمرارة الفقر، وبذل ما ملكت أيديهم بسخاء معطين بذلك النموذج والقدوة التي يقتدي بها كل من اندرج في عالمهم الصوفي. وحسبنا أن الولي أبا العباس السبتي جعل مبدأ الصدقة والإحسان حجر الزاوية في مذهبه الصوفي القائم على قاعدة أن " الوجود ينفعل بالجود " (13) كما أن المتصوف ابن قسي باع كل ما يملك وتصدق به على المعوزين وذوي الحاجات (14).

وتعكس نصوص الحقبة المدروسة التجاء الفقراء إلى المتصوفة كلما حاق بهم مكروه أو اجتاحتهم الكوارث الطبيعية كالقحط والجفاف والمجاعات . في هذا الصدد ذكر ابن الزيات (15) أنه خلال مجاعة عمت مراكش، جمع أحد المتصوفة حشودا من الفقراء بجامع علي بن يوسف " فأخرج قمحا وسمنا كان عنده ففرقه عليهم حتى لم يبق منه شيء". كما أن متصوفا آخر حشد عددا من المحتاجين في مجاعة 535 هـ / 1140م" فكان يقوم بمؤنتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس " (16) وعندما اضطرت امرأة

---

13) أنظر : ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي. تحقيق أحمد التوفيق. نشره كذيل على كتاب التشوف الأنف الذكر ص 454.

14) ابن الخطيب : أعمال الأعلام تحقيق بروفنسال. بيروت 1956 (ط 2) دار المكشوف ص 250.

15) التشوف: ص 246 ترجمة99 .

16) نفسه ص 183 ترجمة 59.

لبيع منزلها إلى أحد الأولياء بثمن زهيد لتقاوم أهوال مجاعة حلت بالمنطقة التي تقيم بها، دفع إليها هذا الأخير ثمن البيع ، غير أنه رد إليها فيما بعد منزلها، وطمأنها بأن ما قام به من قبض المنزل إنما هو عمل عابر، وأن ثمن الشراء إنما هو صدقة بعثها إليها لتسد بها رمقها في تلك المجاعة ثم رد إليها منزلها (17).

ولا تعوزنا الأدلة حول المحاولات التي قام بها المتصوفة للتخفيف من الضرائب التي أثقلت كاهل الفقراء ، فقد بلغ إلى علم أحدهم أن عاملا من عمال علي بن يوسف طالب الناس بمغارم غير شرعية فدعا عليه. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى جاء الأمر بعزله " فلم يؤدوا في ذلك العام شيئا" (18).

ولم يأل المتصووفة جهدا في إعانة المحتاجين ومد يد العون للفقراء وبذل الموسرين منهم كل مما ملكت أيديهم. فأبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف من أهل سلا " كان ذا مال فتصدق بجميعه " (19) واشتغل أبو الحجاج يوسف بن محمد الكلبي بما بعثه إليه علي بن يوسف من أموال " فلم يخرج إلى أغمات من مراكش حتى فرقه على المسلكين " (20). واعتاد متصوف اخر على جمع ما يلفظه البحر من مباح الطعام، فيبيعه ويشتري بثمنه خبزا ويمسك خبزتين ويتصدق بالباقي على المسلكين (21).

ويقدم المتصوف أبو يعزى نموذجا رائعا لقيم الرحمة والإحسان فأثناء اشتغاله بالرعي، كان يقبض من أرباب المواشي رغيفين في كل يوم ويمسك رغيفا واحدا ويتصدق بالثاني على رجل منقطع في المسجد وبعد ذلك انقطع رجل اخر داخل نفس المسجد فأثره على نفسه بالرغيف الثاني، واكتفى بأكل ما تنبته الأرض (22) أماأبو موسى بن إسحاق المعلم " فما جاءه قط مسكين وعنده ما يعطيه إلا أعطاه . فإن لم يكن معه شيء قام معه إلى السوق يمشي

---

17) نفسه ص 153 ترجمة 38.
18) نفسه ص 151 ترجمة 35.
19) نفسه ص 165.
20) المازوني: صلحاء وادي شلف (مخطوط الخزانة العامة بالرباط- قسم الوثائق) رقم ك 2343 ص 222- 223.
21) نفسه ص 226.
22) ابن الزيات : م .س. ص.216.

على الناس ويسألهم له " (23). بل إن أبا إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي " كان يجرد أولاده من ثيابهم ويعطيها لأولاد الفقراء " (24). ولعل هذه النصوص غنية عن كل بيان. وتنهض دليلا على قيم الرحمة والإحسان وروح الإيثار التي تحلى بها المتصوفة وجعلوها أسلوبا لمقاومة الفقر.

وثمة أسلوب آخر إتبعه المتصوف أبو عبد الله محمد بن يعلى التاودي وهو استغلال وظيفة الصبيان داخل المساجد وأخذ الأجرة من الأغنياء وإعطائها للأطفال الفقراء (25).

ومما يعكس قيم الرحمة التي اضطلع بها أولياء ومتصوفة القرن 6 هـ ما ذكرته كتب المناقب عن الشيخ أبي يعزى الذي كان يحرث الأرض ويعطي 9/10 للمساكين ، ويحتفظ بالعشر فقط لنفسه ويقول:" إنني أستحيي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر للمساكين ، فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل" (26).

ويعد أبو العباس السبتي النمودج الصوفي الداعي إلى غرس قيم الرحمة والإحسان داخل المجتمع ، فقد اجتمعت المصادر على أن مذهبه يدور حول عدم تكديس الأموال في يد الأغنياء وضرورة بذلها بسخاء للفقراء والمساكين. وكان يربط ذلك بشعائر العبادة ،فيفسر رفع المؤمن يديه في تكبيرة الصلاة بتخليه عن كل شيء لله وعدم الإحتفاظ لنفسه بالقليل أو الكثير كما يفسر الركوع بالمشاطرة في كل شيئ. أما السلام في نهاية الصلاة فتعني في نظره الخروج من كل شيء وتسليمه لله تعالى وتحدث عن فرائض الصلاة وسننها ومستحباتها انطلاقا من هذه الرؤية فتحية المسجد بركعتين تعني أن المنحني يضع أعز أعضائه وهو الوجه على الأرض، ويمثل الوجه ماله الذي هو أعز الأشياء.(27).

---

23) المازوني : م.س.ص.264.

24) العبدوني: يتيمة العقود الوسطى (مخطوط الخزانة العامة بالرباط- قسم الوثائق وقم ك 305)ص 418.

25) الصومعي : م.س. ورقة 10 وجه - ابن قنفذ : أنس الفقير وعز الحقير تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور. الرباط 1965. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي .ص 25.

26) ابن صعد : م.س.ص 194 - ابن قنفذ : م.س.ص25.

27) ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط قسم الوثائق رقم د 767) ورقة 207 وجه.

ويفسر أركان الإسلام الأخرى من صوم وزكاة وحج انطلاقا من مبدإ التخلي عن الملك للغير من المحتاجين والتساوي بين الأغنياء والفقراء (28). فالإحسان يشكل عنصرا جوهريا في فكره ومذهبه (29) حتى أنه ألف قصيدة حول الصدقة والإحسان(30). وكان إذا قصده أحد مريديه أو غيرهم، يشترط عليه التصدق بجزء من ماله ليتحقق له المراد (31).

وكان يعزي كذلك سبب حدوث القحط والجفاف إلى بخل الناس وعدم بذلهم وسخائهم (32). وقد أثر عنه منذ صغره أنه سأل مدرسه عن معنى الآية : "إن الله يأمر بالعدل والإحسان " فعرف أن المعنى الذي تشير إليه الآية هو العدل والمشاركة وأن يكون بين الناس بالإنصاف والسواء ، فأعجب بهذه الاية وأخذ يتدبرها باهتمام كبير (33) كما وظف آيات قرآنية أخرى لتدعيم مذهبه القائم على الرحمة والإحسان (34).

وبكلمة واحدة يمكن القول أن هذا الفكر المستنير الذي حمله أبو العباس السبتي، والمستوحي من روح الإسلام مع ما يرمز إليه من معان إنسانية من بذل وعطاء وإيثار يجعله بحق في مصاف دعاة المساواة والعدالة الإجتماعية (35).خاصة أن متصوفة الفترة موضوع الدراسة فطنوا إلى أن أساس الصراع الإجتماعي أساس مادي، وكان لهم موقف واضح من الأغنياء الذين نعتوهم

28) نفسه ورقة 193 ظهر ، 194 وجه.

29) ابن عربي: الفتوحات المكية طبعة مصر (دون تاريخ) دار الكتب العربية الكبرى ج 1 ص 577.

30) انظر القصيدة عند مؤلف غير مذكور الإسم: كناش يضم قصائد (مخطوط الخزانة العامة بالرباط- قسم الوثائق رقم د 158)ص 5 .

31) ابن الزيات : أخبار أبي اللعباس السبتي . ورقة 194 ظهر. وفيها يقول: " فإذا أتاه أحد بأي يرى أمر أتاه يأمر بالصدقة ويقول له تصدق ويتفق لك ماتريده".

32) التمبكتي: كتاب نيل الإبتهاج . نشر على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون طبعة بيروت (دون تاريخ) دار الكتب العلمية ص 60.

33) مؤلف مجهول: مناقب الشيخ أبي العباس السبتي (مخطوط الخزانة العامة بالرباط قسم الوثائق رقم د 896) ص 99.

34) مثل الآيات الكريمة " ولما أراد الله تعالى أن يهلك فرعون وأهله دعا عليهم موسى عليه السلام بالبخل "،" ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"، " فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى"،" والذين يكنزون الذهب والفضة..." أنظر ابن الزيات: أخبار ... ورقة 204 ظهر.

35) حاول faure عبثا المقارنة بين مذهب أبي العباس السبتي ومذهب القديس Agape ولم يجد أي صلة بينهما. أنظر مقاله الذي سبق ذكره : Abus- l'abbas As- sabti 453-54

"بأهل الدنيا" (36).

وبرزت قيم الرحمة والإحسان لدى المتصوفة كذلك في اهتمامهم بالإيتام والأخذ بيدهم وإعالتهم. فأبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي " كان يسأل عن الإيتام وأولاد الفقراء فيكسوهم ؛ (37) أما أبو العباس السبتي المذكور أنفا فلم يقصر اهتمامه على الأيتام فحسب بل امتد عطفه إلى النساء اللائي فقدن أزواجهن فكان كما يقول ابن الزيات (38)" رحيما عطوفا على المساكين واليتامى والأرامل".

ولمواجهة ظاهرة الفقر، تطوع بعض الأولياء لتقديم المساعدة للدائنين الذين عجزوا كليا عن رد الديون التي هي في ذمتهم (39). كما ساهموا في تخفيف الأعباء الحياتية على المحتاجين ، فتطوعوا لشراء أضحية العيد لبعض من لم يتمكن من اقتنائها لعائلته. (40) وقد ضرب بعض المتصوفة بسهم وافر في إعانة الفقراء وإغاثة ذوي الحاجة حتى أن أبا العباس البرنسي تلميذ المتصوف ابن حرزهم وصف بأنه " ممن يتسول به في قضاء الحوائج " (41).

ونظرا لروح البذل والسخاء التي جبل عليها المتصوفة، فإنهم ساهموا في إطعام الناس وإيواء الغرباء. وفي هذا الصدد تذكر النصوص أن الشيخ أبا يعزى كان يطعم الزوار ويعلف دوابهم وأن " أهل القرى المجاورين له كانوا يضيفون الواصلين " (42) وعرف كذلك بكرمه وبسط يديه فكان يطعم كل من وفد إليه العسل ولحم الضأن والدجاج (43). و بالمثل اعتاد أحد المتصوفة على صنع طعام كثير يوم عاشوراء من كل سنة، فيجتمع عليه المريدون والزوار

---

36) ابن الزيات : التشوف ص. 2449 ترجمة 102 ص. 290 ترجمة 132.

37) العبدوني : م.س.ص 418.

38) أخبار أبي العباس السبتي. ورقة 193 ظهر،

39) الشراط : الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1264) ورقة 195 وجه .

40) ابن الزيات : التشوف ص 131 ترجمة أبو يعقوب تصولي. وكذلك ص 275 ترجمة أبو عبد الله التاودي.

41) الكتاني : زهرة الأس في بيوتات فاس (مخطوط الخزانة العامة بالرباط قسم الوثائق رقم ك 1281) مجلد1 ص 325.

42)الصومعي : م.س.، ورقة 68 وجه.

43) ابن صعد : م. س.، ص 193.

"وكان لا يتركه وإن احتاج فيه إلى الدين" (44).

ولم يقتصر نموذجهم الإحساني على الأمور المعاشية، بل شمل كذلك العلم والتعليم، فكانوا يدرسون احتسابا لله ونسوق في هذا الصدد نموذج المتصوف أبي محمد بن عبد الجليل بن ويحلان الذي درس الفقه بأغمات وريكة ثلاثين سنة "لا يأخذ على ذلك شيئا، ولا يسأل أحد " (45) مع شدة فقره (46)، مما ينهض قرينة على نموذج الإيثار ونكران الذات. كما أن متصوفا آخر أقرأ القرآن بتلمسان محتسبا لله دون أجرة (47). والأمثلة تتعدد وتطول.

وانعكست قيم الرحمة والإحسان في تعامل المتصوفة مع بعض الفقراء الذين التجأوا إليهم ملتمسين الشفاء من أمراض تكون أحيانا مستعصية، فلم يكونوا يطلبون منهم غير ثمن رمزي يعبر عنه في اللغة الصوفية بمصطلح " الفتوح " (48).

إلى جانب قيم الصدقة والإحسان التي عمل المتصوفة بدون كلل على ترسيخها في شرايين المجتمع ، حاولوا ربط دعوتهم هاته برحمة السماء، فكانوا يلجأون إلى الله يلتمسون رحمة العباد كلما حل بمجتمعهم قحط أو جفاف. وتفيض النصوص في هذا الصدد بذكر أخبار عدة عن التجاء الفقراء إلى الأولياء يلتمسون بركتهم في الإستسقاء. في هذا السياق ، ورد في ترجمة يعلى أبي جبل أن قحطا ضرب مدينة فاس في أحد الأعوام، فبعث أهاليها رسولا إليه لينوب عنهم في التماس دعواته لنزول المطر " فما رجع الرجل حتى غيمت السماء وغيث الناس) (49) وبالمثل تشفع أهل تلمسان بأبي زكريا ابن يوغان لطلب الغيث فتحقق رجاؤهم (50) وفي مدينة داي إلتمس الناس من المتصوف أبي زكريا بن محمد الجراوي أن يصلي بهم صلاة

---

44) نفسه ص. 271.

45) الصومعي : م. س. ورقة 26 وجه.

46) ابن الزيات : م.س. ص. 147

47) نفسه ص 294 ترجمة 139.

48) أنظر التفاصيل في كتابينا: المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع- الذهنيات، الأولياء. ص 159-160. طبعة بيروت 1993.

49) ابن الزيات: م.س. ص104.

50) نفسه ص 124.

الإستسقاء فسقط المطر (51) وشهدت فاس جفافا أخر خلال بعض السنوات، فاستغاث أهلها بأبي يعزى، وقصدوه في المسجد الذي كان يقيم به " فأخذ في البكاء والتضرع إلى أن غيمت السماء وهملت بالأمطار" (52) وثمة نصوص أخرى لا يسمح المجال عرضها أولا بأول (53).

حصيلة القول إن المجتمع المغربي الذي قام على قاعدة التفاوت الإجتماعي خلال القرن 6 هـ جعل مختلف القوى الإجتماعية تنهج أساليب متنوعة لمواجهة هذا التمايز المجتمعي وخاصة ظاهرة الفقر التي كانت تعاني منها العديد من الفئات فاختارت قوى المتصوفة أسلوب الصدقة والإحسان وغرس الرحمة داخل المجتمع مقترحا عمليا في هذا السياق. ورغم النجاح الذي حققته فإنه كان نجاحا محدودا لأنه لم يرق إلى مستوى طرح حل شمولي وجدري لشبح الفقر. فمسألة الرحمة والإحسان التي شكلت عنصرا أساسيا في مذهب المتصوفة ذات طبيعة وجدانية لا تحمل سوى حلول مؤقتة و انفرادية أحيانا، ولا تعطي حلا مقنعا وجذريا للمشكلة. كما أنها تساعد على الإستسلام والقبول والإنسجام مع الواقع ، فيواجه الفقير التحديات الإجتماعية بالصبر والتبعية للغير، وينمو فيه حسن الإتكال ، بل تخف عنه الضغوط التي كان بإمكانها أن تحفزه على الكفاح والنقمة على أوضاعه، ويقبل بوضعه الدوني فيفقد كرامته . وبالمثل فإن الإطار الإجتماعي الذي كانت تندرج فيه قيم الرحمة والإحسان كان إطارا ضيقا اقتصر على فئة محدودة ممن اندرجوا في العالم الصوفي فحسب، ومن ثم هذا النجاح المحدود الذي حققه المتصوفة لكن المسألة تبقى مع ذلك ذات أهمية بالغة في جانبها الإنساني الذي كان نادر السيادة في السلوكات الإجتماعية ، وهو جانب يستحق الإهتمام والتدبر.

51)نفسه ص 138.

51)نفسه ص 138.

53) أنظر على سبيل المثال: ابن الزيات : م.س.ص 255- ابن القاضي: جذوة الإقتباس طبعة الرباط 1973. دار المنصور - قسم 1 ص 18- ابن قنفد:م . س . ص . 104 .